الباب الرابع

دور روسيا فى سوريا

obeikandl.com

obeikandl.com

روسيا وتغيير توازن القوى في المنطقة

يرى خبراء ومحللون أن روسيا تسعى إلى أن يكون لها حصة في أي حل في سوريا فقد ناقشت صحف عربية المحادثات الروسية الإسرائيلية حول سوريا، ومدى تغير موازين القوى في المنطقة عقب التعزيزات التي قدمتها موسكو لدمشق وتساءل بعض المعلقين عن مستقبل التدخل الروسي في سوريا، بينما تطرق آخرون إلى شكوك إسرائيل حيال دور أقوى لموسكو في المنطقة وعبرت صحيفة الثورة السورية عن تفاؤلها إزاء الدعم الروسي لسوريا في وقت تتغير فيه المعايير وتتبدل المعادلات وكتب رئيس التحرير يقول إن المشاغبة الإسرائيلية التي كانت تحدث بحماية ورعاية أمريكية لم تعد صالحة وجاءت المحددات الروسية لتضفي قدراً إضافياً من الثقة بأن ما كان في الماضي لم يعد كذلك في الحاضر، وأن روسيا التي تحركت من موقع مسؤوليتها الفعلية على الساحة الدولية تعي أبعاد ما يترتب على ذلك ورحب حلمي موسى في السفير اللبنانية بالموقف الروسي قائلاً إن موسكو بدت غير مقتنعة بمحاولة إسرائيل التشويش على الدور الروسي المتصاعد وأضاف أن أي موقف روسي لم يصدر حول إمكانية السماح لإسرائيل بمواصلة اعتداءاتها الجوية على الأراضي السورية بحجة منع انتقال سلاح كاسر للتوازن إلى سوريا وحزب الله.

روسيا تسعى لعزل سوريا عن تركيا

شكّلت تركيا حكومةً وشعبًا عمقًا كبيرًا للثورة السورية منذ بدايتها؛ حيث تبنت الحكومة التركية موقفًا متشددًا تجاه رحيل بشار الأسد، كما احتضنت أكثر من ٢ مليون لاجئ، كما أنه لم يعد سرًا أن تركيا تشكل خط إمداد للفصائل الثورية؛ حيث تتواجد غرفة الموك ضمن أراضيها، كما أنها مركز للجمعيات والهيئات الإنسانية التي تقدم الدعم المستمر للمناطق المحرّرة.

لا شك أن التدخل الروسي، خاصة بعد نشر روسيا منظومة صواريخ S400، التي تصيب الأهداف على بُعد ٤٠٠ كم، أسهم بشكل كبير في الحد من الدور التركي؛ حيث جاء هذا التدخل في وقت كانت تركيا تعتزم فيه فرض مناطق آمنة تمتد من الساحل السوري حتى ريف حلب، إلا أن روسيا نجحت في إفشال المشروع، ولعل التقارير التي أكدت وصول صوراريخ S400 إلى شواطئ اللاذقية قبل عملية إسقاط الطائرة الروسية من قِبَل تركيا، تكشف النوايا الروسية المبيتة، وتؤكد أن استقدام هذه المنظومة المتطورة لم يكن ردًا على سقوط الطائرة إنما أمرٌ دُبّر بلَيْل، هدفه تعطيل سلاح الجو التركي بالقرب من الحدود السورية، وضمان عدم قيامه بأي أمر غير مرغوب فيه خارج نطاق التحالف الدولي بقيادة

الولايات المتحدة، وتقريبًا هذا أمر يرضي كلًا من روسيا وأمريكا ولا يُشترط فيه اتفاق.

وتسابق روسيا وميليشيات نظام الأسد الزمن من أجل إكمال السيطرة على جبل التركمان في ريف اللاذقية، والوصول إلى معبر اليمضية الحدودي الذي كان ولا يزال متنفس ريف اللاذقية المحرر باتجاه تركيا، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذلك بعد السيطرة على قرية الربيعة الاستراتيجية في الجبل وفى المقابل أسهم فتح خط جبهة في ريف حلب الجنوبي بالتوازي مع محافظة إدلب وبمشاركة الآلاف من الميليشيات الإيرانية والعراقية، في إرباك قوات جيش الفتح الذي شكّل سابقة في الثورة السورية واستطاع تحرير مئات الكيلومترات في زمن قياسي وصولاً إلى سهل الغاب خاصرة الساحل السوري؛ حيث أصبحت قوات الفتح مشتتة بين مساندة ريف اللاذقية الآيل للسقوط، والدفاع عن ريف حلب الجنوبي وخاصرة محافظة إدلب وبشكل متوقع سيطرت ميليشيات إيرانية وعراقية مدعومة بطيران روسي على قرى تل جبين ودير الزيتون في عمق ريف حلب الشمالي، وأصبحت أقرب إلى نبل والزهراء من السابق، وفي ظل تحالف حزب الاتحاد الديمقراطي المسيطر على عفرين وريفها، وروسيا ونظام الأسد وإيران، ستكون الكتلة الممتدة بين عفرين ونبل والزهراء قاعدة انطلاق مهمة لتلك

القوى المتحالفة لتحقيق مصلحة مشتركة طالما طمحت لها، وهي التقدم باتجاه أعزاز بريف حلب وإغلاق معبر باب السلامة مع تركيا، وباتجاه أطمة بريف إدلب وإغلاق معبر باب الهوى وقد يكون ما زال المخطط بعيد التحقيق إلا أن معالمه باتت جلية بشكل واضح، الأمر الذي يملي على الفصائل الثورية أكثر من أيّ وقت مضى الضغط لمنع السيطرة على جبل التركمان واسترجاع ما خسرته هناك، وتدعيم جبهات ريف حلب الشمالي واعتبار أن المعركة مصيرية ووصول النظام إلى الكتلة المذكورة بين نبل وعفرين ستكون ضربة قوية؛ حيث ستعزز فصل الثورة السورية عن عمقها التركي، كما أن هذه المستجدات باتت تفرض على تركيا الزج بمزيد من الثقل العسكري والسياسي لمنع وقوع المحظور.

دور أساسي لحماية النظام

تأتي أهمية دور روسيا فى حماية نظام الأسد إنطلاقًا من العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية القائمة بين البلدين منذ عقود صحيح أن هذه العلاقات قد ضعفت وأصيبت بحالٍ من الركود بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لكنها سرعان ما استعادت حيويتها بعد تسوية قضية الديون التي كانت مترتّبة على سوريا،ولا تقتصر أهمية الدور الروسي في حماية النظام على تدفّق الأسلحة والذخائر، بل يتعدّى الأمر ليشمل

الحماية السياسية التي توفّرها موسكو لدمشق من خلال استعمالها حقّ النقض ضد كل مشاريع القرارات التي تقدّمت بها الدول الغربية إلى مجلس الأمن لإدانته، واتخاذ إجراءات رادعة ضده تحت الفصل السابع وتصرّ موسكو على أن سياستها الراهنة ليست موجّهة تحديدًا لحماية الأسد وإبقائه في السلطة، بل لخدمة سوريا وللحفاظ على وحدتها، من خلال تهيئة الظروف الملائمة لإجراء حوار بنّاء وهادف بين النظام والمعارضة، من أجل التوصّل إلى حلٍّ داخلي للأزمة٤ لكن، هذه الحجج التي تقدّمها موسكو في شرحها لمواقفها داخل مجلس الأمن وخارجه تبقى واهية،وهذا ما أظهرته المؤتمرات الدولية التي انعقدت تحت عنوان أصدقاء سوريا، وأيضًا إجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة التي خصّصت لبحث الأزمة السورية فهناك قناعة شبه شاملة أنّ ما تقوم به كل من موسكو وطهران يتركّز حول دعم النظام ومنع سقوطه، انطلاقًا من كونه الحليف الوحيد لهما في المنطقة.

ونجحت روسيا باستعمالها تكرارًا لحق النقض في مجلس الأمن في حماية بشار من اتخاذ قرار دولي بتنظيم حملة عسكرية لحماية المدنيين على غرار ما تم في نزاعات داخلية سابقة، كالبوسنة، وكوسوفو وليبيا وذهبت موسكو إلى أبعد من معارضة عملية عسكرية دولية ضد نظام الأسد، حيث عارضت أيضًا إتخاذ قرار دولي بفرض عقوبات إقتصادية

ملزمة ضده وكانت فرنسا وبريطانيا وألمانيا والبرتغال قد تقدّمت في ٥ ديسمبر ٢٠١١ بمشروع قرار لمعاقبة النظام السوري، وسقط بفعل الفيتو الروسي.

ذهبت روسيا إلى أبعد الحدود الممكنة في دعمها للنظام السوري من خلال قيامها تكرارًا بعرض لقوّتها البحرية أثناء زيارة بعض البوارج البحرية بما فيها حاملة الطائرات الأميرال كوزناتسوف لمرفأ طرطوس، أو عند تنفيذ مناورة بحرية شاركت فيها ثماني بوارج روسية قبالة الشواطئ السورية في يناير ٢٠١٢ وجاءت آخر مبادرات الدعم الروسي للنظام السوري من خلال الترحيب بمبادرات الإصلاح التي أعلن عنها بشار، بما فيها عملية الاستفتاء التي نظّمها لإقرار دستور جديد في ٢٦ فبراير ٢٠١٢ .

كما خلصت تقارير أمريكية إلى أنّ نيّة موسكو الأساسية من التدخل في سوريا تكمن في دعم النظام السوري وليس محاربة داعش فعلى الرغم من أن النطاق الكامل للتدخل وهدفه لا يزالان غامضين، إلا أنّ أبعادهما تبدو كبيرة وقد تكون الخطوة الروسية عامل تغيير محتمل لشروط اللعبة العسكرية، الذي من المحتمل أن يوقف إنهيار قوات الأسد، بل يقلب المعادلة لصالح النظام السوري.

كما أن التدخل قد يمثل مشكلة بالنسبة لموسكو، إلا أن روسيا تبدو عازمة على المخاطرة لتحقيق هدفها الكامن في استمرار النظام السوري كما قد يدفع بالمعارضة وحلفائها الذين لا يرغبون حتماً في الانخراط في معركة عسكرية ضد روسيا، إلى التفاوض بشأن حل سياسي بدلاً من حل عسكري كما أن التدخل الروسي سيدفع الأطراف المعنية بالتسليم جدلاً بأنه لا يمكن أن يكون هناك حل للصراع السوري دون وجود موسكو.

حقيقة دور روسيا في الأزمة السورية

من الصعوبة بمكان تصور أن الدول الكبرى، خاصة تلك التي لها مصالح في المنطقة العربية تسميها حيوية أن تتعامل مع الأحداث الجارية فيها،أوالمحتملة بردود الفعل فحسب دون المساهمة في صنعها، أو إدارتها والتحكم فيها، وتوجيهها الوجهة التي تخدم مصالحها ففي رسالة أوباما إلى أركان حكمه، بتاريخ ١٢أغسطس ٢٠١٠، التي عنونها الإصلاح السياسي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا طلب منهم الاستعداد لحدوث تغييرات كبيرة في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بعد فترة طويلة من جمود الإصلاحات السياسية التي كانت قد شرعت فى إجرائها بعض هذه الدول وإذ يبدي اوباما، في رسالته،التي عرف محتواها مؤخراً، تخوفه من أن تؤثر عملية الجمود هذه على مصالح أمريكا، خصوصاً في ظل تنامي العداء لها من جراء وقوفها إلى جانب

إسرائيل، وصمتها عن تجاوزات الحكومات الصديقة لها تجاه شعوبها، فقد وجه طاقمه لإعداد خيارات محددة للسياسة الأمريكية في المنطقة تحافظ على مصالحها ولا يمكن قبول صحة افتراض أن أمريكا وغيرها من الدول الكبرى والإقليمية لم تتدخل للتحكم فى مجريات هذه الثورات وتوجيهها الوجهة التي تلائم مصالحها، أو إعادة احتواء نتائجها، وهذه مسائل صارت واضحة جداً .

وما سبق ينطبق تماماً على الدور الروسي، مع اختلاف مهم وهو أن الروس لا يبنون مواقفهم تجاه دول المنطقة العربية، بدلالة ما يجري فيها من تحركات شعبية فقط، بل أيضاً بدلالة السلوك السياسي الأمريكي والغربي عموماً لذلك ومنذ انطلاق التحركات الشعبية في تونس، مروراً بليبيا ومصر واليمن وصولاً إلى سورية، كان الروس يأخذون مواقف معاكسة للمواقف الأمريكية، حتى ولو بدت غير شعبية، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة بخصوص مواقف الدولتين من الأزمة السورية ولقد نظر الروس كالأمريكان إلى الأحداث الجارية في سورية من منظار مصالحهم الخاصة، دون الاهتمام بمصالح الشعب السوري، وهذا أمر مفهوم، فالمسألة ليست أخلاقية بالنسبة لهم، بل مصالح وإذا كان الأمريكان، حتى قبل ظهور داعش وسيطرتها على مساحات واسعة في العراق وسورية، يجدون مصلحتهم في إسقاط النظام السوري، واستلام

المعارضة الموالية لهم مقاليد السلطة، فقد وجد الروس مصلحتهم في دعم النظام السوري ليس فقط لكونه حليفهم الاستراتيجي في المنطقة، بل لأن سقوطه يعني بالنسبة لهم خروجهم من منطقة الشرق الأوسط نهائيا ولعقود من السنين القادمة.

الدور الروسي في سورية فرصة ذهبية لإيران

يتّبع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في معالجته للأزمة السورية تكتيكات صلبة يحاول فرضها كقواعد تعامل مكتملة الشروط ومغلقة أمام أى تعديل أو تطوير، إلا في اتجاه تصليب تلك التكتيكات بدرجة أكبر حتى القوة الروسية الناعمة المتمثلة في المجال الدبلوماسي باتت تتبع تكتيكات بوتين الصلبة وثمّة محفّزات تدفع بوتين فى هذا الاتجاه مثل تراخي إدارة اوباما وتناقض توجهات الأجهزة الأمريكية تجاه الأزمة السورية كما كشف الصحفي سيمور هيرش مؤخراً، وعدم وضوح موقف حلف شمال الأطلسي من التحرك الروسي على حدوده الجنوبية.

وشكلت تلك الوقائع مناخاً سلبياً وحاضنة لتوليد التقديرات غير دقيقة، أخذت تؤثر في دوائر صنع القرار في روسيا، وتظهر مؤشرات هذا التأثير في شكل جلي في التطويرات التي يضيفها بوتين على حملته في سورية سواء من حيث توسيع نطاق تحركها أو سقوف أهدافها ولا

شك في أن ذلك يخلخل إدارة الأزمة من قبل مختلف اللاعبين المنخرطين فيها ويؤثر في التفاعلات الإستراتيجية المحيطة بها، فمنهج بوتين، في بداية انخراطه في الأزمة، كان اتّباع سياسة الإكتفاء المعقول التي على أساسها تحقق روسيا أهدافها دون الإضطرار إلى عبور النقطة الحرجة للمهمّة والذي قد يدفعها إلى الزج بالمزيد من القوة العسكرية، ويعيد تعريف وجودها من المشاركة إلى التدخل، ويفصل بينهما خيط رفيع، وفي سبيل تلافي الوقوع في هذا الخطر يضطر بوتين إلى استخدام أدوات التشغيل التي توفرها إيران في الميدان من كتائب وميليشيات، وهو ما يدفع موسكو إلى صناعة تحالف عسكري تقوده إيران برياً وتكون المساهمة الروسية فيه على شكل مشاركة في التخطيط وتبادل المعلومات وتحديد الأهداف.

في مقابل تلك الحاجة تجد إيران نفسها تحت غطاء التفويض الدولي الذي حصلت عليه روسيا بما يمنحها هامشاً واسعاً للمناورة، وفيما تتركز الأنظار على التدخل الروسي وتسلط الأضواء عليه بدرجة كبيرة يتحوّل التدخّل الإيراني إلى عنصر غير مرئي لكنه يعمل بفعالية وراحة أكبر في تنفيذ أهداف المشروع الإيراني، التي على رأسها ليس الحفاظ على بشار الأسد بل إعادة صياغة الواقع الديموجرافي في سورية والعراق، بحيث تشكّل الحرب على داعش والتوتر الإقليمي خاصة مع

تركيا قنابل دخان للتغطية على المشهد الحقيقي وتفاصيل الكارثة التي تشكّلها إيران في المشرق العربي وباعتبار أن مثل هذا الأمر يستلزم إطاراً زمنياً لصناعته وترسيخه فإن إيران، ستعمل بدرجة كبيرة على عرقلة فرصة صناعة التسوية التي أقرها مؤتمر فيينا مؤخراً وقرار مجلس الأمن رقم ٢٢٥٤ حتى لو أرادت روسيا عكس ذلك، إذ رغم أن موسكو تبدو ظاهرياً المسيطرة على تفاصيل المشهد السوري لكنها لا تتحكم فيه مما يجعل دورها قاصراً على تهيئة الظروف المناسبة لإيران سواء من خلال ضرب خصوم طهران المحليين وإشغالهم عن مواجهة مشروعها أو بالضغط على دول الجوار ودفعها الى الإنكفاء والإنشغال بالاجراءات الإحترازية لمنع حدوثل صدام مع روسيا، ولا شك في أن ذلك يشكل فرصة ذهبية لإيران يصعب توافرها في وقت آخر، وبالتالي ستعمل إيران على استمرار هذا الوضع أطول وقت ممكن.

لكن رغم ما سبق وتلك الفرصة الذهبية لإيران فى وجود روسيا إلا أن إيران تخشى من التواجد الروسى فلماذا؟.

لماذا تخشى إيران من الدور الروسي في سوريا؟

وفقا لرواية وكالة رويترز للأنباء، فإن الجنرال الإيراني قاسم سليماني قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني هو من قام بإقناع

روسيا بالتدخل في سوريا لدعم نظام بشار الأسد، وبفرض التسليم بذلك فانه لا يعني بالضرورة أن إيران تبارك التدخل الروسي بشكل كامل وهو ما تؤيده مؤشرات وأسباب عدة يمكن رصدها تجعلنا نذهب إلى القول إن التدخل العسكري الروسي في سوريا يشكل خطراً على إيران أيضاً:

١ـ حلفاء بمصالح متعارضة أيضا:

بعد أيام من إعلان روسيا دخولها رسمياً في سوريا، نقلت وكالة رويترز للأنباء عن مصادر لبنانية قولهم إن مئات الجنود الإيرانيين وصلوا إلى سوريا خلال الأسبوعين الأخيرين وهو ما أثار ارتباكاً في صفوف المحللين ففي حين ذهب بعضهم إلى القول بأن التعزيزات الإيرانية تأتي في سياق الاستفادة من الضربات الجوية الروسية في تعزيز التقدم البري فإن آخرين يذهبون إلى استنتاجات مفادها أن إيران تحمل مخاوف من تعاظم النفوذ الروسي في سوريا والمزاحمة في الكعكة السورية.

بخلاف ذلك فقد تواردت أنباء عن انتقال ما بين ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ مقاتل من مقاتلي الحشد الشعبي من العراق إلى سوريا وفقا لتصريحات وزير عراقي رفض الكشف عن هويته لصحيفة العربي الجديد وقد جرى نقل الميليشيات عبر طائرات تابعة للخطوط الجوية العراقية والسورية.

فإيران قلقة من التمدد الروسي على الأرض أيضا، فقد كانت الخطة الإيرانية تسير وفق فكرة الأرض لإيران والجو لروسيا لكن التقارير الميدانية تشير إلى أن روسيا تنشر قواتها على الأرض ليس فقط في قواعدها في اللاذقية وطرطوس لكن في حماة، فوفقاً لمدير مركز حماة الإعلامي، فالقوات الروسية أنشأت مركزاً لقواتها العسكرية البرية في معسكر الفروسية، الواقع بين حيي الصابونية وجنوب الملعب في مدينة حماة، وتم إخلاؤه من القوات السورية ورفع العلم الروسي على المبنى وبلغ عدد القوات الروسية في حماة أكثر من ١٠٠٠ جندي وفقاً للتقديرات ولم تقتصر الأمور على ذلك، بل تم إخلاء اللواء ٤٧، الواقع جنوبي حماة، لتحويله إلى معسكر كبير للقوات الروسية الآتية مستقبلاً إلى حماة،هذه التطورات في التحركات الروسية تفقد إيران مكانتها كمنفرد بالقرار نيابة عن نظام الأسد وتجعله شريكاً في الكعكة السورية وهو ما ترفضه إيران التي ترى أنها دفعت وحدها ثمن دعم النظام السوري طوال ٤ سنوات وتحمل إيران وروسيا مصالح متعارضة في المنطقة فمن ناحية فإن النفط الإيراني الذي ينتظر أن يغرق الأسواق قريبا ينظر إليه على أنه منافساً للنفط الروسي، أما المخاوف الأهم فتتعلق بالغاز الطبيعي، حيث تخشى إيران أن تسعى روسيا لاستغلال نفوذها في سوريا لنقل الغاز عبر المتوسط.

٢-قيادة العمليات في سوريا ومخاوف من تمدد روسي في العراق:مع قدوم روسيا إلى أرض المعركة كان من الطبيعي أنها لن تقبل العمل تحت قيادة ميدانية إيرانية فكان البديل هو إنشاء مركز قيادة مشترك يضم كل من روسيا وإيران وسوريا والعراق وتقرر أن تقام هذه القاعدة في بغداد وتتناوب على قيادتها الدول الأربعة بشكل دوري بمعدل ٣ أشهر لكل منها على أن تكون العراق القائد الأول وقد أعلنت عنها وسائل الإعلام الروسية بشكل موسع ومفصل في الوقت الذي بدت فيه إيران متشككة ومتحفظة حيث قال الرئيس الإيراني أمام جمع من الإعلاميين خلال زيارته الأخيرة إلى نيويورك: طلب مني الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بشكل شخصي تشكيل تحالف استراتيجي معه ضد الإرهاب في سوريا ومع ذلك لا يوجد الآن تحالف استراتيجي بين طهران وموسكو ووفقا لعباس قايداري المحلل الإيراني في شئون الأمن الدولي وقضايا الدفاع، فإن إيران ترى أن تعزيز التواجد العسكري الروسي في سوريا سوف يضعف بسهولة المواقف القوية لإيران وحزب الله مما سيؤثر على مكاسب طهران في أي تفاوض قادم بسوريا خاصة في ظل عدم الاتفاق بين البلدين على الرؤية النهائية وسقف المطالب وإيران تبدو قلقة إزاء التعليقات المشتركة التي تخرج من بغداد وموسكو وتشير إلى استعداد روسيا لتوسيع عملياتها إلى العراق في حال طلبت بغداد ذلك بشكل رسمي وهو ما سيضع إيران في موقف صعب، خاصة في ظل وجود

القوات الأمريكية وبشكل أخص في ظل سعي الحكومة الحالية في بغداد بقيادة حيدر العبادي لتقليص اعتمادها على إيران وتحجيم النفوذ الإيراني، وهو ما يعني مزاحمة جديدة لنفوذ إيران خاصة أن إيران بالفعل تقوم بتقديم دعم استخباراتي لكل من العراق وسوريا وترتبط معها باتفاقات ثنائية في هذا المجال.

وتخشى إيران من أن التعاون الاستخباراتي مع روسيا قد يؤدي في النهاية إلى إكساب موسكو المزيد من المعلومات حول القدرات العسكرية لحزب الله وخطوط السير الخاصة بقواته، وهو ما تخشى إيران أنه يمكن أن يتم تمريره إلى إسرائيل بشكل أو بآخر كثمن لشراء صمت رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو وموافقته على التدخل العسكري في سوريا.

obeikandl.com